## لماذا لا يموت أولاد المتسخة؟

يحدث أحيانا أن يظلم الكاتب بنفسه عملا له أكثر مما يظلمه قراؤه ونقاده، أظن أن سيد أدباء الإنسانية الكاتب الروسي العظيم دوستويفسكي فعل ذلك عندما أخذ موقفا سلبيا من روايته الجميلة (مذلون مهانون)، حين كتب مقالا في مجلة (العصر) عام ١٨٦٤ بعد نشر الرواية في طبعة مستقلة يعتذر فيه للقراء عن تسرعه في نشر الرواية على حلقات قبل ثلاث سنوات، معترفا أنه كتبها في ظروف خاصة فرضت عليه أن يسرع في الكتابة، لأن مجلة (الزمان) الأدبية التي أنشأها أخوه كانت في حاجة إلى رواية مسلسلة لتنشرها، فقرر أن يعطيها الرواية دون أن يتسع وقته لبناء روايته بشكل محكم.

في المقدمة التي كتبها المترجم السوري العظيم سامي الدروبي لهذه الرواية يرى أن دوستويفسكي ظلم نفسه وروايته عندما كتب ذلك، مثنيا بشدة على الرواية التي «تعتبر جسرا بين ما أنتجه من قصص في أيام الشباب، وبين الأعمال الكبيرة التي كتبها في سن النضج، وربما حدث ذلك لأن النقاد استقبلوها بتفاوت شديد، فمنهم

من تحمس لها أكبر الحماسة ومنهم من ظلمها أكبر الظلم»، حب سامي الدروبي للرواية ورغبته في أن يقرأها القارئ دون تأثر بحكم مؤلفها نفسه عليها، جعله يؤكد في مقدمته أن الرواية ليست مفككة إلا في نظر من يقرؤها قراءة عَجلَى، فيتيه في سراديبها دون أن يلاحظ ارتباط أجزائها ببعض ارتباطا وثيقا، مشيرا إلى ما كتبه دوستويفسكي عن روايته بعد صدورها بثلاث سنوات حين قال: «ولكن إليكم ما كنت أعرفه حين شرعت في كتابتها: إن روايتي هذه ستشتمل على شعر ولو لم تنجح، وأنها ستشتمل على فصول تفيض حرارة وقوة، وأنها ستشتمل على وصف صادق وفني لشخصيتين حيتين إلى أبعد الحدود، وكانت هذه الثقة تكفيني، وقد خرجت الرواية غريبة بعض الغرابة، غير أن فيها قرابة خمسين صفحة أعتز بها».

جعلتني مقدمة الدروبي أفكر طيلة قراءتي للرواية سائلا نفسي: يا ترى ما هي الخمسين صفحة التي يفخر بها دوستويفسكي دون غيرها من صفحات هذه الرواية؟ لكنني مع توغلي في الرواية وتنامي إعجابي بها، سألت نفسي: هل كانت لعبة ذكية من «دو» كما يحب الدروبي أن يسميه، لكي يدفع القارئ للانهماك والتركيز في روايته التي يحتفظ بذكريات سيئة عن ظروف نشرها وكتابتها، إذا كان الأمر كذلك فأظنه قد نجح نجاحا ساحقا في مسعاه، لكنه ربما لو كان لم يفعل، لما قل استمتاعي بالرواية على الإطلاق، لأنني بعد إكمال قراءتها وجدت نفسي متفقا مع رأي سامي الدروبي في أن دوستويفسكي ظلم نفسه وروايته ظلما بينا، لأنها رواية شديدة الجمال والعذوبة تدفعك كشأن كل ما كتبه دوستويفسكي إلى رؤية البشر من خلال منظاره الثاقب

الفاتن، فلا تعود لرؤيتهم بنفس الطريقة التي كنت تراهم بها من قبل أن تقرأ له.

إذا كنت قد قرأت الرواية أظنك ستتفق معي ومع سامي الدروبي أيضا في أن الخمسين صفحة التي يفخر بها دوستويفسكي في روايته، لا بد أن تكون تلك الصفحات التي تضمنت حوارا طويلا بين بطل الرواية الكاتب إيفان بتروفيتش أو فانيا، وبين الأمير فالكوفسكي الذي تقدمه لنا الرواية بوصفه الوغد اللئيم الذي لا يتورع عن شيء ولا يحجم عن شر، وهو حوار يدور داخل مطعم بعد أن سَكِر الأمير فانطلق لسانه لكي يحدث فانيا عن دخائل نفسه، مقدما تشريحا رهيبا لنفسيات تلك الفئة من البشر التي تمتلك المال والنفوذ وتتلاعب بالذين لا يملكون المال والنفوذ، وهو تشريح عندما تقرأه ستدرك أن تلك الفئة من البشر ستظل على ما يبدو قائمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وأن تحجيم خطرها على المجتمعات البشرية يتطلب وعيا بألاعيبها وحيلها وقدرتها المستمرة على تغيير جلدها من أجل أن تبقى مسيطرة وقوية في كل العصور، وربما تجد فيه إجابة على ذلك السؤال الشعبي الشهير الذي تحول إلى «جرافيتي» شهير على حيطان بلادنا، أعني سؤال «لماذا لا يموت أولاد المتسخة؟»، مشيها أولاد المتسخة، ما يجراش حاجة.

يبدأ الأمير البوح لبطل الرواية معترفا أنه يشعر بلذة عظيمة لأنه يخلع قناعه فجأة الآن ويسفر عن وجهه الحقيقي لشخص آخر دون حياء، لكنه يضيف قائلا بسخرية أنه لحسن الحظ أن ذلك لا يحدث

على الدوام من كل الناس، لكي يتمكن المجتمع من تحقيق الراحة والرخاء «سأقول لك شيئا، لو أمكن أن يتوصل كل منا، وهذا مستحيل بحكم الطبيعة الإنسانية إلى الكشف عن جميع أفكاره دون أن يخشى أن يظهر الناس لا على مالا يجرؤ أن يقوله، وما لا يمكن أن يقوله لأحد، فحسب، ولا على ما لايجرؤ أن يقوله لأعز أصدقائه فحسب، بل أيضا على مايخشى أن يعترف به أحيانا لنفسه، لخرجت من الأرض عفونة تبلغ من النتانة أنها تخنقنا جميعا».

بعدها يبدأ الأمير في شرح تصوره للكون الذي يبني عليه جميع تعاملاته مع الناس من حوله فيقول: «ما حيلتي وأنا مقتنع بأن الأنانية العميقة هي أساس جميع الفضائل الإنسانية، وأن فضيلة عمل من الأعمال هي على قدر ماينطوي عليه من أنانية، أحِبّ نفسك أيها الإنسان، تلك هي القاعدة الوحيدة التي أعترف بها، إن الحياة سوقٌ فلا تُهدر مالك، ولكن ادفع ثمن لذتك إن شئت، وبذلك تُحَقِّق واجبك كله تجاه أخيك الإنسان، هذه هي أخلاقي إذا كنت تحرص على معرفتها، رغم أنني أعترف لك بأن الأفضل في رأيي ألا تدفع شيئا البتة، وأن تعرف كيف تحمل الناس على أن يعملوا لك ماتريد بلا ثمن، ليس لي مثل أعلى ولا أريد أن يكون لي مثل أعلى، إنني لم أشعر يوما بالحنين إلى مثل أعلى، إن المرء ليستطيع أن يعيش حياة فرحة ممتعة بدون مثل أعلى... إن الحياة لا تزال تشتمل على أشياء جميلة، إنني أحب الاعتبار، الجاه، والفنادق الخاصة، والمقامرة الضخمة، إنني أعبد ورق اللعب عبادة، وأحب النساء خاصة، أحب النساء بشتى جوانبهن، أحب حتى الفجور المظلم، المختفي، الغريب، الشاذ، بل

والقذر بعض القذارة، من قبيل التغيير، هأ هأ هأ، إنني أقرأ في وجهك ماتشعر به نحوي من احتقار شديد. ياصديقي إذا كنت حقا تريد الخير للبشر فيجب أن تتمنى لجميع الأذكياء أن تكون أذواقهم كذوقي، رغم أن ذوقي قذر بعض القذارة، وإلا لم يبق لهم ما يعملونه في هذا العالم، فلا يبقى ثمة إلا الأغبياء الحمقى، إنهم بذلك يصبحون سعداء، هل تعلم، مامن شيء أمتع للإنسان من أن يعيش في صحبة حمقى، ومن أن يعزف على أوتارهم، إنه يستفيد من ذلك».

ثم يواصل عرض فلسفته قائلا: « لا تأخذ عليّ أنني أقيم وزنا لآراء المجتمع، وأنني أحرص على بعض المواضعات، وأنني أنشد الاعتبار والجاه، أنا أعرف أنني أعيش في مجتمع تافه، ولكنني حتى الآن أتحمس له، وأنعق مع الناعقين، إنني أتظاهر بالدفاع عنه دفاعا حارا، ومع ذلك فمن الممكن إذا اقتضى الأمر أن أهجره أول من يهجره، إنني أعرف جميع أفكارهم الجديدة، رغم أنني لم أحفل بها يوما، وعلام أحفل بها، إنني لم أشعر يوما بعذاب الضمير، إنني أقبل كل شيء، متى كان لي فيه نفع، وأضرابي كثير، ونحن جميعا في أحسن حالٍ حقا، يمكن أن يفنى كل شيء على الأرض، وأن نظل نحن وحدنا لا نفنى أبدا، إننا نوجد منذ وجد الوجود، قد يغرق الكون كله، ونبقى نحن نطفو على وجه الماء، نطفو إلى الأبد، انظر بهذه المناسبة، كم تطول حياة أمثالنا، إننا نعمِّر كثيرا، ألم يلفت نظرك ذلك؟ إننا نعيش حتى الثمانين، حتى التسعين، فالطبيعة نفسها تحمينا إذا، هه هه، أريد أن أبلغ التسعين حتما، أنا لا أحب الموت، سحقا للفلسفة، فلنشرب يا عزيزي».

في موضع آخر من الرواية يقدم دوستويفسكي ملمحا آخر شديد الأهمية نقرأ من خلاله الطريقة التي تفكر بها تلك الفئة المستغلة المتسخة التي تتمكن من البقاء دائما في كل العصور، من خلال سؤال تطرحه بطلة الرواية على أحد الدبلوماسيين من رجال السلطة، حيث تقول له: «هل يجب أن نخشى الإصلاحات السياسية التي شرعت الدولة في تنفيذها؟»، فيجيبها بكلمات شديدة الخطورة أظنك ستجد صدى لها في الواقع الذي نعيشه الآن في بلادنا، حيث يقول: «إن روح الإصلاح سرعان ما ستسفر عن بعض النتائج، والناس سيعودون إلى صوابهم حين يرون تلك النتائج، لكن روح الإصلاح هذه ستختفي من المجتمع (أعني من قسم من المجتمع طبعا) وسيدرك الناس عند التطبيق أنهم اقترفوا خطأً، ولذلك سيعودون إلى النظام القديم بمزيد من القوة... إن تجربة هذه الإصلاحات ستكون مفيدة على كل حال، رغم أنها محزنة، ذلك لأنها ستبين أن المحافظة على الوضع القديم واجبة، ولأنها ستأتي بمعلومات جديدة، ولذلك يجب أن يتمنى المرء منذ الآن أن يمضوا بها إلى آخر حدود الطيش.. إنهم لا يستطيعون بدوننا أن يفعلوا شيئا، وما من مجتمع أمكن أن يبقى بدوننا، لن نخسر إذا شيئا، بل سنربح كثيرا، سننجو، سننجو، ويجب أن يكون شعارنا في هذه اللحظة: الأفضل أن تسوء الحال».

كل ما أتمناه الآن أن تجد هذه السطور التي اقتطعتها من رواية دوستويفسكي الجميلة صدى لديك، فلا تدفعك فقط لقراءتها بل وتجعلك تتأمل طويلا في الواقع المرير الذي نعيشه الآن في بلادنا،

**لا** تنخدع بمظاهر الوطنية التي تظهر فجأة على أولئك الأوغاد **الذين** يدعون أن قلوبهم مع الثورة، لكن سيوفهم جاهزة لذبحها، **لأنهم** يفضلون دائما أن تسوء الحال لكي ينجوا من عواقب التغيير **والإصلاح**، ويبقى فقراء البلاد دائما كما هم، «مُذلين ومُهانين».